عدد ٣٥ السنة الثانية

المنار

١٣١٥

مصر في يوم السبت ٦ رجب سنة ١٣١٧ الموافق ١١ نوفمبر سنة ١٨٩٩

﴿ الكرامات المأثورة ﴾

«وهي الخامسة من مقالات الكرامات»

نتخول القراء بمباحث الكرامات تخولا خشية السآمة من اتصال الكلام في الموضوع الواحد وانما نصدقهم الوعد بالتدريج بحيث لا يملون ولا يسأمون ولا نحن نغفل ما يسنح لنا من المباحث الاخرى بمناسبات الزمان واختلاف الاحوال .

تبين في المقالة الرابعة ان حجج مثبتي وقوع الكرامات على ضربين أحدهما ماورد في الكتاب العزيز وقد ذكرنا ملخص ماقالوه في الآيات القرآنية التي يدل ظاهرها على وقوع الخوارق لغير الانبياء وحققنا ان قصارى مايحتج به منها على ثبوت كرامات الاولياء هو الالهام الصحيح لبعض أصحاب النفوس الزاكية كأم موسى عليه الصلاة والسلام وما في معناه ككلام الملائكة لمريم عليها السلام وانه يحتمل ان يكون هذا مما قبله . فثبت ان الالهام هو مما يكرم الله تعالى به أولياءه وأصفياءه باشرافهم أحيانا على مايعزب عن علم غيرهم فنقف عند حد ماورد وثبت ولا نقيس عليه غيره لان

ماجاء على خلاف القياس وغير المعهود لا يصح ان يقاس عليه كالاحكام الشاذة في سائر العلوم والفنون . وقد قضت الجهالة بالدين والعلم بان تخضع الامة لمن يظهر على يده شيء غريب عما ألفت واعتادت وان كان شعوذة أومبنياً على صناعة خفية مهما ظهر صاحبه بلباس الدين وزي النساك أو المجانين .

(الضرب الثاني) ماورد عن سلف الأمة ومن بعدهم الى يومنا هـذا . وقد سبق القول في مقالة (حجج منكري الكرامات) بان حجتهم الخامسة هي انه لوكان للكرامات أصل لكان أولى الناس بها الصدر الاول فانهم صفوة الاسلام وأشد استمساكاً به ممن بعدهم . وقلنا هناك بان السبكي قد أجاب عن هذه الحجة بسرد الكرامات المأثورة عن الصحابة عليهم الرضوان ووعدنا بان نعد هـذه الكرامات في حجج الاثبات عداً . ونتبعها تأييداً أو رداً . وقد ضاقت عن ذلك مقالة حجج المثبتين الماضية فنذكرها هنا وهي

(١) على يد أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه . وذكر اثر عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله تعالى عنها وفيه ان أباها أخبر في وصيته لها عن وفاته وعن حمل له لم يكن معروفا وعيّنه بانه أنثى حيث قال في سياق كلامه (وانما هما أخواك وأختاك) فقالت انما هي أسماء فمن الاخرى ؟ فقال (ان ذا بطن بنت خارجة أراها جارية) فكان كما قال . أقول وهذا من الالهامات الصحيحة التي أثبتناها وقد ورد في الصحيح انه كان في الامم قبلنا محدثون (بفتح الدال المشددة) أي ملهمون وان عمر بن الخطاب من المحدثين في هذه الامة . وأجدر بأبي بكر ان يكون محدثا أيضاً !!

(٢) ثم ذكر حديث عبد الرحمن ولده (رضي الله عنهما) في الاطعام وفيه ان الطعام كثر في القصعة ببركة أبيه قال عبد الرحمن وأيم الله ما كنا

نأخذ لقمة الا ربا من أسفلها اكثر منها قال حتى شبعنا وصارت بعد ذلك اكثر مما كانت بثلاث مرار . أقول اذا ثبت هذا فهو الخارق الحقيق لان زيادة الطعام حقيقة لاتكون الا بخلق جزء منه يوجد من العدم لان النموّ بالاستمداد من الاجسام الاخرى كما في الحيوان والنبات لايتأتى فيه . وقد حار العقلاء في سر الخلق وكيفية الايجاد من العدم حتى كاد هذا الامر ان يكون وراء مايقدر البشر على تصوره . ومثله اعدام الموجود فالايجادوالاعدام من الاسرار الالهية التي لم يطلع الله عليها أحداً من خلقه والحكماء متفقون على ان القوى البشرية عاجزة عن ايجاد نحو ذرة أو رملة وعن اعدام نحو نقطة ماء من الوجود وان بلغت من العلم مابلغت . ولكن البراهين العقلية تثبت ان وجود هذا العالم ممكن لاواجب وان الممكن لاوجود له من ذاته لانه لايكون الا حادثا وهذا هو الدليل على ان الله تعالى خالق كل شيء . أما الخبر فهو عند الشيخين وهو من اخبار الآحاد التي تفيد الظن لذاتها وليس الموضوع في نفسه من قضايا الدين فمن اطمئن قلبه له وصدقه لثقته بروايته فله ان يبقيه على ظاهره ويعدّه من الخوارق وله ان يأوّله ليطابق المعروف في العلم موافقاً لما في الدين من ان الله تعالى جعل لكل شيء يحدث في هذا الكون سبباً ولذلك سمي عالم الاسباب . فالله تعالى خلق مادة الكون بمحض ارادته المعبر عنها في الكتاب بلفظ (كن) ثم جعل بعد ذلك لكل شيء سببا كما هو مشاهد وبعض أئمة الصوفية كالشيخ الاكبر يسمي ماوجد أولا بمحض الارادة (عالم الامر) وما خلق بعد ذلك بالاسباب المعبر عنها في لسان الشرع بالسنن الالهية (عالم الخلق) ولله الخلق والامر تبارك الله رب العالمين . أما طريق التأويل فمن المعهود عند الناس ان يقولوا كأنّ هذا الطعام أو الماء

قد زاد وبورك فيه وكأن الاناء ينبوع اذا كفاهم من حيث يظنون انه لايكفيهم واذا زاد مع ذلك عن الحاجة يبالغون في القول فيقولون انه قد زاد أو تضاعف أو صار اكثر مما كان وان الاناء لينبع نبعاً كما يقولون ان الارض قد طويت اذا قطعوا المسافة في مدة أقصر مما كانوا يتوقعون. وكل هذا من قبيل التشبيه البليغ المعهود في اللغة العربية بكثرة ولاتكاد تخلو منه لغة من اللغات. ولكن التعبير بقوله اكثر مما كان بثلاث مرار ينأى بالكلام عن التجوز ويدنيه من ارادة الحقيقة. وكثيراً ما كانوا يروون الاحاديث بالمعنى فلسنا على ثقة من نص عبارة عبد الرحمن رضي الله عنه. على ان هذه الكرامة ليست مسندة الى النبي صلى الله عليه وسلم فالبحث فيها انما هو بحث في خبر تاريخي وانما سمينا الكلام حديثاً لان فيه ان الطعام حمل بعد ذلك الى النبي صلى الله عليه وسلم فأكل منه الخلق الكثير

(٣) ماروي عن عمر الفاروق رضي الله عنه. وذكر السبكي في مقدمته قصة سارية بن رستم الجلجي وهي مشهورة وفيها كرامتان احداهما انه اطلع وهو على منبر حرم المدينة على حال جيش سارية مع العدو في نهاوند وان العدو أعد له كمينا في الجبل والثانية انه ناداه (ياسارية الجبل) فاسمعه. ونحن نقول ان هذه القصة مماتتوفر الدواعي على نقله بالتواتر لانها وقعت والمسلمون كلهم مجتمعون في المسجد يسمعون الخطبة وهي من الغرابة في نفسها وعظم الشأن في موضوعها بالمكانة التي نعرفها. ولو حدث بها الجم الغفير من الصحابة لحدث بها أضعاف أضعافهم ممن بعدهم لانهم كانوا اسمع للغرائب، وأولع بالعجائب. ومع ذلك مارواها البخاري ولا مسلم ولا اصحاب السنن الاربعة ولا اصحاب المسانيد من قبلهم وانما انفرد بها البيهقي من المحدثين وتناقلها كثير من

المؤرخين ، الذين جمعوا بين الغث والسمين . وقد وطن قومنا نفوسهم على قبول جميع ما يسند الى عظماء الامة على علاته صح أو لم يصح ومن بحث في ذلك ينسبونه الى التقصير في تعظيم السلف « وما تعظيم السلف الا بالاقتداء بهم » حتى ان عالماً مثل التاج السبكي قال في بيان هذه الكرامة ان عمر رأى القوم في نهاوند عياناً وكان كمن هو بين اظهرهم (او طويت له الارض وصار بين اظهرهم حقيقة وغاب عن مجلسه بالمدينة) فكيف جوّز انتقال عمر من المدينة الى نهاوند وارشاده امير الجيش ورجوعه كلمح البصر ولو حصل هذا لملأ خبره الخافقين مع انه لم يقل به احد قط . اللهم ان غرامنا بالتأويل قد اطفأ فينا نور الفطرة والعقل وطمس معالم العلم والدين فانقذنا اللهم من الاحتمالات والتأويلات واتحفنا بعلم اليقين انك على ماتشاء قدير

(٤) ومنها قصة الزلزلة ـ نقل السبكي عن الشامل لامام الحرمين ان الارض زلزلت في زمن عمر رضي الله تعالى عنه فحمد الله واثنى عليه والارض ترجف وترتج ثم ضربها بالدرة وقال قري الم اعدل عليك ؟ فاستقرت من وقتها اه

اقول ان الزلزلة ليس لها زمن معين فيقال انها استقرت قبل انقضائه كرامة لعمر رضي الله تعالى عنه . ولا اذكر انني رأيت لهذا الاثر رواية صحيحة ولئن صحت الرواية فقد علمت مافيها . وقد اطال السبكي الكلام في هذه المسئلة وزعم ان الفاروق كان يؤدب الجمادات كالارض كما يؤدب الناس لانه خليفة في الظاهر والباطن وزعم ان الارض لاتزلزل الا لسببين جور الحكام واليوم المعلوم المشار اليه بقوله تعالى (اذا زلزلت الارض زلزالها) وتكلم في تفسير السورة بما يخالف الجماهير . وقد بينا الحق في هذا كله وبينا اسباب الزلازل بحسب مادل عليه العلم في كتابنا (الحكمة الشرعية) وانها لا علاقة

لها بالجور ولا بالعدل

(ه) ومنها قصة النيل ـ قال السبكي ان النيل كان في الجاهلية لايجري حتى يلقى فيه جارية في كل عام فلما جاء الاسلام وجاء وقت جريان النيل أتى اهل مصر الى عمرو بن العاص فأخبروه ان لنيلهم سنة وهو انه لايجري حتى يلقى فيه جارية بكر بين أبويها ويجعل عليها من الحلي والثياب افضل مايكون فقال لهم عمرو ان هذا لايكون وان الاسلام يهدم ماقبله فأقاموا ثلاثة اشهر لايجري قليلاً ولا كثيراً (لعله يريد انه لايجري زيادة عن العادة) حتى هموا بالجلاء فكتب عمرو بذلك الى عمر بن الخطاب فكتب اليه عمر قد اصبت ان الاسلام يهدم ماقبله وقد بعثت اليك بطاقة فالقها في النيل ففتح عمرو البطاقة فاذا فيها (من عمر أمير المؤمنين الى نيل مصر أما بعد فان كنت تجري من قبلك فلا تجر وان كان الله الواحد القهار هو الذي يجريك نسأل الله الواحد القهار ان يجريك) فألقى عمرو البطاقة في النيل قبل يوم الصليب وقد تهيأ اهل مصر للجلاء والخروج منها فاصبحوا وقد اجراه الله ستة عشر ذراعا . قال السبكي فانظر الى عمر كيف يخاطب الماء ويكاتبه ويكلم الارض ويؤدبها .

اقول ان هذه الحكاية مبنية على التصديق بان النيل كان قبل الاسلام لايفيض فيضانه الا بعد وضع الجارية العذراء فيه وانها لخرافة اذا جاز ان يصدقها اغبياء الوثنيين الذين يعتقدون ان النيل من الآلهة لايفيض الا اذا أرضوه بمثل ذلك او ان الآلهة يجرونه بحسب اهوائهم وان القاء الجارية من ذرائع استجدائهم ـ فلا يجوز ان يصدقها مسلم يعتقد ان الحكيم العليم اقام هذا الكون بنظام ثابت وسنن مطردة لاتتغير ولا تتبدل منها ان الانهار تجري من ينابيع كالعيون الصغيرة تتفجر من بطن الارض وتستمد في ايام الشتاء من الجداول

والوديان التي يجتمع ماؤها من المطر . وان ماء الينابيع من المطر على ما بيناه في المقالة الاولى من مقالات الكرامات « أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الارض » . وقد علم ان النيل يجري من بحيرتين عظيمتين في الاقاليم الاستوائية . وانما يفيض على مصر فيضانه المعلوم في فصل الصيف لان صيف هذه البلاد شتاء في تلك البلاد ولا يكون الفيضان الا تدريجاً لان المطر يكون كذلك وانما يقل الفيضان ويكثر بقلة المطر وكثرته في تلك البلاد التي ينبع منها ويستمد مما دونها . ويجوز ان يقل الفيضان في اول عهده ثم يكثر في آخر المدة تبعاً لاحوال المطر ولكن لا يتأتى ان يجري في يوم واحد ستة عشر ذراعاً ولو حصل ذلك لكان ضرره اضعاف نفعه فان زيادة عظيمة كهذه في نهر عظيم كالنيل اذا جاءت دفعة واحدة لا يكون شأنها الا هائلا وعظيماً .

وحاصل القول انه ان صح ان فيضان النيل كان يتوقف قبل الفتح الاسلامي على القاء البنت العذراء فيه وان هذا بطل بالاسلام فان الخارق للعادة والآتي على خلاف سنة الكون هو ما كان قبل الاسلام لا ما بعده وهذا قلب لقصد القائلين بالكرامة هنا . ولو بنيت هذه القصة على اصل معقول لكانت هكذا - كان قدماء المصريين يعتقدون ان النيل نهر مقدس كما يعتقد الهنود بنهر الكنج وكان من تقاليدهم انه متى جاء وقت الزيادة فيه يزينون احدى بناتهم ويلقونها فيه معتقدين ان الزيادة لا تأتي أو لا تفي بحاجة البلاد الا فعلوا هذا كما يلقي الهنود أنفسهم في نهر الكنج اتباعا لتقاليدهم الدينية . وان عادة المصريين هذه استمرت الى عهد الاسلام . وان الفاروق رضي الله عنه أمر بابطالها لاعتقاده ببطلانها ومخالفتها للاسلام . وانه اتفق ان الزيادة كانت قليلة في اول تلك السنة والفيضان بطيئاً . وان عمر لما

بلغه ذلك تضرع الى الله تعالى ان يغيث عباده ويزيد في النيل لئلا يعتقدوا ان منعهم من القاء البنت هو الذي منع فيضان النيل . وان الله تعالى رحم تضرعه واستجاب دعاءه بان كثرت الامطار في تلك الاثناء في البلاد التي ينبع النيل منها ويجري فيها، وانه كتابه ماوصل الى عمرو بن العاص الا والنيل قد طفق يزيد زيادة صالحة حتى وصل في يوم عيد الصليب الى ستة عشر ذراعا وهي الزيادة المعتدلة التي تكفي البلاد كما هو مقرر في كتب التواريخ «فوقع الحق وبطل ماكانوا يعملون» وان هذه الزيادة الكثيرة في أواخر مدة الفيضان كانت من زيادة المطر قطعا فان كانت مما اقتضته طبيعة تلك السنة كما يكون في بعض السنين في كل عصر فذلك توفيق من الله على يد أمير المؤمنين حكمته ابطال تلك السنة السيئة وان كان حصل بدعاء عمر فهو كرامة له لان استجابة الدعاء بما يخالف العادة المطردة في الخلق كرامة بلا ريب. ولكل أحد ان يعتقد من ذلك ماترتاح اليه نفسه. هذا وان الحكاية لم ترد بطرق صحيحة موثوق بها فتستحق هذه العناية. ولكن العناية والرحمة تجبان لأمة يصدق اكابر علمائها (كالتاج السبكي صاحب جمع الجوامع) بان النيل كان لايجري الا اذا ألقيت فيه فتاة صفتها كيت وكيت وان عمر أدبه بكتابه له فرجع عن غيه. وقد ابتليت هذه الامة بتقديس الاموات والتسليم لهم بكل ماقالوا . ولولا ان حالة العصر أنارت بعض الاذهان وأعدتها لقبول الحقائق ورفض الخرافات لما كان لنا ان نكتب ما كتبنا والله الهادي الى سواء السبيل (للكلام بقية)